قراءة في سلسلة : أسفار العربية

بقلم : عائشة عثمان

نتناول في هذه الدراسة مجموعة من الكتب صدرت أخيرا في عمان ضمن سلسلة أسفار العربية بتحقيق الدكتور يحيى عبد الرؤوف جبر وهذه الكتب هي :

اولا : العشرات في غريب اللغة لابي عمر الزاهد المتوفى سنة 345 هجرية ·

ثانيا : كتاب العشرات في اللغة لابي عبد الله محمد ابن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني ، المتوفى سنة 412 هـ ·

ثالثا : كتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني لسليمان بن بنين الدقيقي النحوي المتوفى سنة 614 هـ·

مدار هذه السلسلة

تدور الكتب الثلاثة حول اللغة ، فتتناول الالفاظ من حيث ترادفها أو اشتراكها في صفة من الصفات ، الى جانب اشتراكها في معان واختلافها أو تناقضها في معان أخرى ·

والكتب الثلاثة من المصادر اللغوية التي تبرز تطور التاليف اللغوي عند العرب في القرون ما بين الرابع الى السابع ·

ويعد الكتاب الاول ـ العشرات في غريب اللغة الاول في مجاله ، وانما تاثر به القزاز القيرواني وابن بنين الدقيقي في كتابيهما وعارضاه أو نقلا عنه · وسنتناول في ما يلي كل كتاب على حدة ، بشيء من الايجاز ، وبما يلقي عليه ضوءا كافيا ··

اولا عشرات الزاهد

يعد هذا الكتاب في كتب الغريب التي قصرها مؤلفوها على الالفاظ الشاردة فقيدوها وصنفوها في كتبهم ، ولما كان عمل كهذا لا يروق القارىء ، ويحتاج الى منهاج محكم سلس يجمع بينها ، فقد عمد صاحبنا الى اسلوب لطيف في تبويب الفاظه ، ويتمثل ذلك في انه جعلها في مجموعات ، تتكون كل مجموعة من عشرة الفاظ ، وهذا هو السر في تسمية الكتاب بهذا الاسم ·

وتتفق هذه الالفاظ العشر في صفتين على الاقل وذلك كان تتفق في الميزان الصرفي وشيء آخر أو اشياء ومن ذلك الحرف أو المقطع الاخير ·

وقلنا الميزان الصرفي وليس المبنى ، لان بعضها يبدو متجانسا في مبناه ، ولكن الحقيقة أنه ليس كذلك، ومما يوضح هذه الحقيقة انه كان يورد ما يوهم بذلك مثل ايراده كلمة (مُكتان) مع كلمات على وزن فُعلان والنون فيها زائدة كالحُمران أو أصلية كالهُرمان بمعنى العقل ، أما المُكتان فهي في وزن مُفتعِل من كان يكين بمعنى يكْفُل ، وهو الكفيل · ويلاحظ ، بسهولة ويسر ، أن المفردات تختلف مبانيها ما بين المفرد والجمع ، وقد يورد كلمات مثناة ، كما تختلف من حيث أصالة الحروف وزيادتها ·

ويتألف هذا الكتاب من ستين عشرة رواها أبو عمر الزاهد عن شيوخه ، وفي طليعتهم ثعلب ، احمد ابن يحيى ، الذي اشتهر ابو عمر بكونه غلاما له ، فلقب بغلام ثعلب ، وذلك لكثرة ملازمته له ، وقد روى ثعلب بدوره عن شيوخه على النحو التالي :

1 ـ عن الاصمعي عبد الملك بن قريب بواسطة نصر ·

2 ـ عن أبي عمرو الشيباني بواسطة عمرو ابنه ·

3 ـ عن الفراء بواسطة سلمة ·

4 ـ عن أبي زيد الانصاري بواسطة ابن نجده ·

5 ـ وعن ابن الاعرابي مباشرة دون واسطة ،وجل الروايات عنه وعن ابي عمرو الشيباني ·

وقد توفر للمحقق مخطوطتان للكتاب احداهما نسخة برلين ، والثانية نسخة مكتبة حسين جلبي بتركية غير أن بين المخطوطتين تباينا كبيرا يتمثل في كون مخطوطة برلين تزيد عن نسخة تركية بقدر كبير يمثل ثلاثة أضعافها أو أكثر ·

ويشير المحقق الى أن هناك نسخة أخرى على الاقل لم تصل الينا وتعليل ذلك ما يكشفه الكتابان الآخران مما نقله أبو عبد الله التميمي من عشرات الزاهد ، حيث بنى كتابه على عشرة لابي عمر الزاهد لم انجدها لا في مخطوطة مكتبة برلين ولا في مخطوطة مكتبة حسين جلبي ·

ثانيا : عشرات التميمي

اعتمد المحقق في اخراج هذا الكتاب على مخطوطة مكتبة سليم أغا بتركية وهذا الكتاب يكبر الكتاب السابق بما يعادل ضعف مادته · وهو قائم كما اشرنا قبل قليل ، على عشرة من كتاب أبي عمر الزاهد ، زعم التميمي أنه أراد به أن يعارض كتاب الزاهد ، بل لقد تطاول عليه في مقدمته واستعرض عضلاته حيث قال أنه سيأتي بالمئات مما جاء به أبو عمر من العشرات ·

وفعلا ، فقد أخذ عشرته التي تبدأ بـ « المتع » التي كل مفرداتها من هذا القبيل ، أي على وزن فَعْل بسكون العين ، وتنتهي بحرف العين ومن مفرداتها عند أبي عمر المشع ،وهي المِشْية القبيحة ، وتخص بالنساء، والمنْع بمعنى السرطان ··· الخ · وزاد التميمي عليها نحوا من مائة وستين كلمة من وزنها وعلى شرطها غير أن هناك ما تجدر ملاحظته ، وهو أن التميمي كان كحاطب ليل يجمع من الكلام ما وافق اللفظ ، ولم ينتبه للمعنى أغريب هو أم مألوف ·

أما أبو عمر الزاهد فكان لا يأتي بالالفاظ الا للغريب من المعاني · فقد جاء بالمنع لمعنى السرطان · ولكنه لم يأت به لمعنى الحؤول ، ومعنى ضد الاخذ وضد العطاء ·

بل ذهب التميمي ، لابعد من ذلك حيث كان يأتي

من الالفاظ ما هو لغة في غيره ، كالضبع لغة في الضبع، وكالسبع لغة في السَّبُع من الحيوانات ·

ويذصرف التميمي عقب ذلك الى ضرب من التاليف مختلف ، ذلك انه اسمى كتابه العشرات ، وذكر في خطبته انه سيذكر مئات مما جاء به أبو عمر الزاهد عشرات ، ولكنه عدل عن ذلك الى ما يسمى بالمشترك اللفظي ، فراح يأتي بمفردات مرتبة على حروف المعجم، مع اختلاف يسير عن ترتيب المشارقة ، حيث بدأ بالآل وثنى بالتامور دون التعرض لاية كلمة تبدأ بحرف الباء ··· وهكذا ، وراح يقلب الالفاظ لمعانيها المختلفة، ويستشهد لها بالآي الحكيمة أو الحديث الشريف أو الاشعار المعتمدة عند اللغويين ، ولعل هذه خصلة حميدة امتاز بها كتابه عن كتاب الزاهد ، الذي تثقل فيه الشواهد الى درجة ملحوظة ·

ومن الملامح المميزة لكتاب التميمي انه لم يثبت ولو سندا واحدا مما انتقلت اليه مادته عن رجاله ، على العكس من صنيع الزاهد ، نعم لقد أورد سندا عن محمد بن ابي العرب الكاتب في معرض رده على أبي عمر ، ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك في سواء كتابه ·

ومن ذلك أنه لم يتبن المنهج المعجمي الدقيق الذي كان قد عرف قبل زمانه بحين ، فافرد الالفاظ « أخلف خلف ، خالف ، خالفة » كلا في باب مستقل ، مع العلم أنها جميعا مما تبحث فيه المعاجم تحت مادة (خ ل ف) وكذلك فعل في كلمتي القَرْن ، القَرَن ، والحمار والحمارة·

ويعد هذا الكتاب حلقة وصل بين عشرات الزاهد، وكتاب اتفاق المباني وافتراق المعاني الذي سنتحدث عنه فيما يلي ، ذلك أن ابن بنين نقل عنه قدرا كبيرا ·

وقد سبق أن طبع هذا الكتاب ـ عشرات التميمي القيرواني ـ وذلك سنة 1925 بصيدا ، غير أن نسخه نفدت منذ حين ، ولم يكن محققا ، وانما طبع على طريقة الرعيل الاول ممن اشتغلوا باحياء التراث . وقد صنف الاستاذ المنجي الكعبي ـ من تونس ـ كتابا أسماه « القزاز القيرواني حياته وآثاره » عرض فيه لجوانب مختلفة من حياة المؤلف ، كما حقق الدكتور زغلول سلام كتابا له في ضرائر الشعر ·

ثالثا ـ اتفاق المباني وافتراق المعاني

يعود تاريخ تصنيف هذا الكتاب الى نهاية القرن السادس أو أوائل السابع ، وقد ألفه ابن بنين وجعله برسم خزانة ابن القاضي الفاضل · وقد اعتمد المحقق في اخراجه نسخة دار الكتب المصرية ، وأخرى منقولة عنها حديثا تحفظ في الخزانة التيمورية ولكن المحقق غض النظر عن النسخة الاخيرة ، لنقصها من اخرها ، ولان ناسخها وقع في أخطاء كثيرة ·

ويقع هذا الكتاب في نحو من ثلاثمائة صفحة تتضمن دراسة تقع في نحو تسعين صفحة ، ثم الكتاب محققا في ما تبقى ·

ويعد المؤلف سليمان بن بنين من اللغويين والنحويين ورجال الحديث ، وكان قد أجاز ياقوتا الحموي بروايته كتبه عنه ، ومن ضمنها كتاب الاتفاق الذي نحن بصدده ، حيث كان قد التقى به في حضرة القاضي الاكرم ، قاضي دمشق ·

ويصور كتاب الاتفاق هذا ما آلت اليه المصنفات اللغوية في ذلك العصر ، حيث لم تعد تتجاوز النقل والاقتباس والشرح والتهميش والتمتين ، متكئة في ذلك كله على مؤلفات المتقدمين · وهذه الامور واضحة بجلاء شديد في هذا الكتاب حيث يمكن رد مادته الى ما يلي :

1 ـ كتاب الكامل للمبرد ، حيث نقل منه فصلا في تقسيم الكلام من حيث المعاني ٠

2 ـ عشرات أبي عبد الله التميمي حيث نقل عنه ما يربو عن عشرين فصلا ، بما في ذلك معارضته لابـي عمـر الـزاهـد ٠

3 ـ كتاب شجر الدر لابي الطيب ، علي بن عبد الواحد اللغوي ٠ حيث نقل عنه أربع شجرات تشكل أكثر مـن نصفـه ٠

4 ـ كتب خلق الانسان للاصمعي ، وأبي ثابت محمـد بن ثابت ، وكتاب نظام الغريب للربعي ٠ حيث نقل منها نحوا من أربع صفحات ٠

5 ـ كتب الاضداد المختلفة حيث نقل منها ما يربو على ثلاثة فصـول ٠

6 ـ كتاب الدارات للاصمعي ، حيث نقل منـه دارات العرب كلها ، ولعل ما نقله هو الكتاب كله ٠

7 ـ كتب المقامات ، وقد نقل منها بعض النصوص على نحو ما بينه المحقق في الباب الثالث ، باب مـا اختلف لفظه واتفق معناه ٠

ويمتاز ابن بنين في هذا الكتاب ، وهو أول كتاب ينشر له ، بخصلة حميدة تدنو به من درجة أبي عمر الزاهد ، وهي أن الرجل كان يرد معظم ما نقـل الـى أصحابه عبر سلسلة من رجال السند ، مع توثيق ذلك بما يشبه أساليب رجال الحديث ، وتدعيمه بذكر الزمان والمكان يوما وشهرا وعاما ، ولكن الرجل لم يجر على هذا المنوال في طول كتابه ، فلعله كان يسهو أحيانا ، ولا نظن انه كان يتعمد ، فالرجل ، كما قلنا ، يعد في رجال الحديث ، ولقد صنف في ذلك ، وابنه عبد الغني، الذي يكنى به وبالربيع ، يعد أيضا في رجال الحديث في القرن الهجري السابـع ٠

وبعد ، فقد بذل المحقق جهدا واضحا في توثيق مواد الكتب الثلاثة ، وتخريج شواهدها المختلفة ، الى جانب ما زودها به من فهارس وكشافات تيسر عملية الاستفادة منهـا وهـذه السلسلـة جديـرة بالقـراءة والاهتمام ٠٠٠ يكفي أنها تظهر لاول مرة ، لتملأ حيزا كان من قبل خاليا في المكتبة العربية ٠